

الفصل السادس عشر

«الفتونة»

هل الجميع يستمتعون بوقتهم؟

من القواعد، أو بالأحرى المبادئ، السائدة في بيتنا: «إما أن يستمتع الجميع بوقتهم، وإلا فلا». حيث يوجد أكثر من طفل واحد، قد تنقلب أحياناً الخناقاة النزيهة إلى «فتونة» وفرد العضلات. نحن عادة لا نتدخل بقدر الإمكان، فإذا كان الأطفال في خلاف اجتماعي، كنا نتركهم يحسمونه بأنفسهم. نظام التسلسل الاجتماعي أمر حتمي (أي خضوع الضعيف للأقوى منه أو الصغير للأكبر منه وهكذا)، لكن إذا فلت الزمام أو لجأوا إلينا، كنا نتدخل ونحكم بينهم.

نفخ البالونة

دعونا نرسم سيناريو محتملاً: تحاول إحدى البنات نفخ بالونة في حين يحاول أخوها الأكبر منها بعدة سنوات (مع أنه في العادة لطيف مع أخواته) منعها من إتمام مهمتها ويسخر من اعتراضاتها وعجزها. في البداية تشاركه البنت في اللعبة، لكنها سرعان ما تمل وتبدأ تقاوم بجديّة. أمّا هو فيستمتع جداً بالمشاكسة فيستمرّ بنشاط متزايد في إحباط جهودها. يزداد غضبها وشكواها، أمّا هو فيزداد ضحكاً. تبدأ تقاوم جسمانياً، وتحاول الفكك منه بإطاحة ذراعها

والصراخ: «كفَّ عن ذلك!» لكنه يواصل مشاكسته بعناد لإثبات تفوقه وبراعته في تفرغ البالونة. فيسأل الأب: «حسناً، ما المشكلة؟». فيرد الصبي: «لا شيء، إننا نلعب ليس إلا». أمّا هي فتحتج: «إنه يمنعني من نفخ بالونتي». إذن، قد حان الوقت لشيء من التدريب والتويخ.

المنهج الخاطيء

الطريقة الخاطئة لمعالجة هذا الوضع تكون بالصراخ بفارغ صبر: «أعطها البالونة لتخرس وتخرج من هنا: رأسي ستنفجر من هذا الزعيق!» فيرميها لها الولد باحتقار ونظرة خبيثة تنم عن تفوقه، أمّا هي فتحاول نفخها في حضوره لتثبت انتصارها. ويستمرّان يتنافسان بصمت حتى تسنح فرصة أخرى للشقاوة. ويتكرر حدوث ذلك بينهما حوالي ثلاثين مرة في اليوم. قد تضربهما بالعصا مرتين أو ثلاث مرات، لكن دون جدوى. فتصبح البنت «خباصة نمّامة»، ويصبح هو «فتوة عنيداً». وتلعب أنت دور الحكيم الذي يجيء متوقفاً مشاجرة وكان مهمتك تحقيق العدل، بدلا من لعب دور المعلم الذي يدرّبهما على البرّ.

المنهج الصحيح

جرّب هذا المنهج. قل بهدوء: «ماذا يجري هنا؟» فيردّ الصبي: «لا شيء.. نحن فقط نلعب». يقول الأب: «يا أخت، هل تستمتعين بهذا؟» فتقول: «لا، هو يمنعني من نفخ بالونتي». ثم يقول الأب

للصبي: «هل تستمتع أنت بهذا؟» فينظر في خجل ويقول: «نحن كُنَّا نلعب، ليس إلاّ». فيسأل الأب: «يا أخُ، هل أختك تستمتع بهذه الدّعابة؟» «لا، لا أظن ذلك». «هل كنت تعلم بأنها لم تكن تستمتع بهذه الدّعابة؟» «نعم، أظن ذلك». «ما معنى قول: أظن ذلك؟ هل كنت تعلم بأنها تستمتع بذلك أم لا؟» «حسناً، كنت أعلم بأنها متضايقه». «وهل كنت أنت تمرح على حساب أختك المتضايقه؟» فيصمت. «هل يمكن أن تمرح وتستمع بوقتك بالتنكيد على شخص آخر؟» يصمت مرة أخرى، ويُطرق رأسه إلى الأرض «انظر إليّ. هل يعجبك أن يعاملك واحد أكبر منكم هكذا؟» «فيجيب: لا، لن يعجبني». فأتلو عليه مقولتي الشهيرة: «ما لم يستمتع الجميع بالوقت، فليست هناك متعة على الإطلاق». «يا بُنيّ، هل تعرف أن هتلر ورجاله كانوا يستمتعون على حساب معاناة الآخرين؟ كانوا يضحكون بينما الأولاد يصرخون من الألم. هل تريد أن تكبر فتصير مثل هتلر؟» فيجيب في انكسار كامل: «لا يا بابا، أنا لا أريد أن أكون مثل هتلر. أنا لم أقصد التنكيد عليها. أنا آسف يا أختي». ما أعظمه من تدريب! سيخرج الأخ والأخت متراپطين متوادّين. وستغفر الأخت لأنها قد رأت توبته وشعرت بالأسف على حزنه، فتنجذب إليه. وهو من جانبه سيحميها ويدافع عنها أكثر. وبهذا يتم الإصلاح بينهما.

لن يولّد توبيخك توبة إلا إذا التمس الصبي الصدق فيك. أمّا إذا لم يتوسّم فيك الصلاح الذي تدعوه إليه، فلن يتوب؛ بل سيزداد صلابةً ومرارةً.

إذا ساء في عينه طريقة حديثك مع أمه، فلن يختبر توبة حتى تعبّر أنت عن توبتك. وإذا لم يُظهر الصبي توبة بعد التأكد من فهمه للأمور، فيلزم تأديبه بالعصا، ثم تكرار التوبيخ والحوار. فإذا ظل على عدم توبته ولم يتولّد في قلبه غفران وحبّ إلى أخته، فمن الواضح أن مشكلته أعمق وأرسخ.